قوائم المحتويات متاحة على المجلات الاكاديمية العراقية
مجلة البحوث والدراسات الاسلامية
الصفحة الرئيسية للمجلة: https://djisrs.dws.gov.iq

الهويّة الثّقافيّة والانتماء في رواية "ابنة الشّرق": دراسة التّحوّلات الثّقافيّة والاجتماعيّة وتأثيرها على الهويّة الشّخصيّة والطّبقيّة

Cultural Identity and Belonging in the Novel 'Daughter of the East': A Study of Socio-Cultural Transformations and Their Impact on Personal and Class Identity

١-د.حسين تكتبار فيروزجائي؛ أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة قم.
٢- نعمه مطشر شنان الشّمري؛ طالب الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة قم.
٣- د. مهدي ناصري؛ أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها، بجامعة قم.

Keywords:
Zahraa Al-Ghanem; "Daughter of the East"; cultural and social transformations; personal and class identity; cultural identity; belonging..

Abstract

This study examines Zahraa Al-Ghanem's novel "Daughter of the East" from the perspective of cultural identity and belonging, within the context of the social and cultural transformations taking place in the Arab world. The research problem stems from the novel's conflict between authenticity and modernity, and the feelings of alienation and uprooting. The novel reflects the interaction of the individual and society across successive generations in a changing environment. The significance of this research lies in its highlighting of a literary treatment of a tragic and complex issue in contemporary Arab society. The text addresses this issue using narrative, psychological, and existential techniques, thus giving the study both scholarly and critical value. The research aims to analyze the dimensions of identity and belonging in the novel, focusing on the impact of social and cultural transformations on shaping the characters' identities on both a personal and class level. It adopts a descriptive analytical approach that connects the narrative text to the surrounding social and cultural reality. This approach considers the analysis of the internal and external tensions experienced by the characters, while also examining the relationship between tradition and modernity, and the conflict between the self and the other, through the various components of identity and belonging. The findings highlighted that the novel portrays identity as an ongoing and dynamic process, shaped through the characters' struggle with their cultural heritage and the pressures of social change, where the "other" plays a central role in shaping self-awareness. The study also revealed that the novel reflects the fracturing of traditional family structures and the emergence of more independent and challenging female roles, pointing to the fragility of cultural models in the face of political and economic transformations. The novel documents significant shifts in education, social relationships, and complex, multifaceted affiliations across generations. Furthermore, the study explored the intertwining of cultural identities within the novel between East and West, noting the sectarian and social influences that impose constraints on individual choices, thus exacerbating crises of identity and belonging. It demonstrated how feelings of emotional and personal alienation coexist with alienation from place and culture, creating a recurring existential tension in the characters' lives. The study affirms

that the novel reflects the crisis of Arab society, which oscillates between clinging to its origins and openness to the other, and the identity conflict between tradition and modernity. In conclusion, the novel "Daughter of the East" stands as a narrative model reflecting the major social and cultural transformations in Arab societies. It profoundly explores the crisis of identity and belonging in the face of modernity and globalization. It emerges as an artistic document capable of interpreting the tension between past and present, and of reshaping individual and collective identity. This study contributes to the intellectual and cultural debates surrounding identity and belonging, offering a comprehensive vision that considers contemporary historical and social dynamics and their implications for the Arab individual.

معلومات المقال

تاريخ المقال:

الإرسال:٢٠٢٦/١/٩م

المراجعة:٢٠٢٦/١/١٥م

القبول: ٢٠٢٦/١/٢٨م

الكلمات المفتاحية:

زهراء الغانم؛ رواية "ابنة الشّرق"؛ التّحوّلات الثّقافيّة والاجتماعيّة؛ الهويّة الشّخصيّة والطّبقيّة؛ الهويّة الثّقافيّة؛ الانتماء.

ملخص

تناولت الدراسة رواية "ابنة الشرق" للكاتبة زهراء الغانم، من منظور الهويّة الثقافية والانتماء، في ظل التحولات الاجتماعية والثقافية التي يشهدها العالم العربي. تنبع مشكلة البحث من صراع الرواية بين الأصالة والتجديد، ومشاعر الغربة والاقتلاع من الجذور، حيث تعكس الرواية تفاعل الفرد والمجتمع عبر أجيال متعاقبة في بيئة متغيرة. وأهمية البحث تكمن في كونه يسلط الضوء على معالجة أدبية لقضية مأساوية وشائكة في المجتمع العربي المعاصر، يعالجها النص بتقنيات سردية ونفسية وجودية، مما يجعل الدراسة ذات قيمة علمية ونقدية. يهدف البحث إلى تحليل أبعاد الهويّة والانتماء في الرواية، مع التركيز على أثر التحولات الاجتماعية والثقافية على تشكيل هوية الشخصيات على المستوى الشخصي والطبقي. ويعتمد منهجًا تحليليًا وصفيًا، يربط بين النص السردي والواقع الاجتماعي والثقافي المحيط به. المنهج يراعي تحليل التوترات الداخلية والخارجية التي تمر بها الشخصيات، مع دراسة العلاقة بين التقاليد والمعاصرة، وصراع الذات مع الآخر، من خلال مكونات الهوية والانتماء المختلفة. أبرزت النتائج أن الرواية تصوّر الهوية بوصفها عملية مستمرة وديناميكية، متشكلة عبر صراع الشخصيات مع تراثها الثقافي وضغوط المتغيرات الاجتماعية، حيث يشكل الآخر محورًا رئيسًا في صياغة الوعي الذاتي. كما أوضحت الدراسة أن الرواية تعكس تصدع البنى التقليدية للأسرة وظهور أدوار نسائية أكثر استقلالية وتحديًا، مشيرة إلى هشاشة النماذج الثقافية في مواجهة التحولات السياسية والاقتصادية. وتسجّل الرواية تحولات ملحوظة في التعليم والعلاقات الاجتماعية والانتماءات المركبة والمتعددة على مستوى الأجيال. كما تناولت الدراسة تشابك الهويات الثقافية في الرواية بين الشرق والغرب، مع ملاحظة التأثيرات الطائفية والاجتماعية التي تفرض قيودًا على خيارات الأفراد، مما يؤجج أزمات الهوية والانتماء. وبيّنت كيف تتعايش مشاعر الغربة العاطفية والشخصية مع غربة المكان والثقافة، مما يخلق توترًا وجوديًا متجدداً في حياة الشخصيات. وتؤكد الدراسة أن الرواية تعكس أزمة المجتمع العربي الذي يتراوح بين التمسك بالأصول والانفتاح على الآخر، وصراع الهوية بين التقاليد والتجديد. في الختام، تعتبر رواية "ابنة الشرق" نموذجًا سرديًا يعكس التحولات الاجتماعية والثقافية الكبرى في المجتمعات العربية، حيث تستعرض بعمق أزمة الهوية والانتماء في مواجهة الحداثة والعولمة. وتبرز كوثيقة فنية قادرة على تفسير التوتر بين الماضي والحاضر، وإعادة تشكيل الذات الفردية والجماعية. وتضيف الدراسة إلى النقاشات الفكرية والثقافية حول الهوية والانتماء، مقدمة رؤية متكاملة تأخذ في الاعتبار الديناميات التاريخية والاجتماعية المعاصرة وتبعاتها على الإنسان العربي.

* Corresponding author at **Hossein Taktabar Firouzjaei: Associate Professor,**

H.Taktabar@qom.ac.ir

***Na'ma Mutashar Shanan Al-Shammari;**

***Mahdi Naseri: Associate Professor.**

M.Naseri@qom.ac.ir

١. المقدمة

ساهمت التّحوّلات والمتغيّرات الاجتنماعيّة والفكريّة الّتي عصفت بالعالمِ العربيِّ، في إرساءِ قواعد جديدة جعلت من الرّوايةِ العربيّة تنحو منحى الحداثة ومواكبة الرّكب الحضاريّ، في جوٍّ مشحونٍ بالصّراع بين الأصالةِ والحداثةِ، بينَ القيمِ المتوارثةِ بينَ الأجيال، والواقعِ المتغيّر، ومن هنا تنبعُ أهمّيّة دراسة رواية "ابنة الشّرق" للكاتبة زهراء الغانم. حيثُ تقدِّمُ نصًّا سرديًّا ينـدى بجدليّةِ الفردِ ومجتمعه، ويعبّرُ عن التّجاذبِ الحاصل بين انتمائه إلى المكان والجذور، وبين الانفتاح على الآخر. في هذه الرّواية، تتجلّى إشكاليّةُ التّحوّل الثّقافيّ والاجتماعيّ، باعتبارها عاملًا فاعلًا في تشكيلِ الهويّة الشّخصيّة والطّبقيّة للشّخصيّاتِ، حيثُ يظهر تأرجح الأفرادِ بينَ الثّبات على منظومة القيم، وبين تبنّيهم رؤى جديدة تسهمُ في إعادةِ تشكيلِ الذّات وتعريفها على أساسها. في هذا الإطار، نقعُ على حقلٍ خصبٍ للتّحليلِ والتّمحيص، لأنّه يسلّطُ الضّوء على الصّراعين الدّاخليّ والخارجيّ، في مجتمعٍ تكثّفت فيهِ المتغيّرات. وتكمنُ أهمّيّةُ هذا البحث في كونه يسعى إلى استكشاف أبعاد الهويّة والانتماء، عبر رصدِ ملامح التّحوّل الثّقافيّ والاجتماعيّ في "ابنة الشّرق"، وتحليل انعكاساتِها على البنيةِ السّرديّة وعلى مصائرِ الشّخصيّاتِ. كما يبلورُ دورَ الأدبِ في تجسيدِ همومِ المجتمعِ وشجونِهِ، ويقدّمُ خطابًا نقديًّا يبرزُ قلقَ الإنسانِ العربيّ في عصرِ العولمةِ، وموقفه من الفوارق الطّبقيّة، وتوتّره بين التّقليد والتّجديد متمثّلًا بالحداثةِ. على ضوءِ ما ذُكر، يتبيّنُ الهدف من الدّراسة البحثيّة هذه، والّذي لا يقتصرُ على الإضاءةِ على نتاجٍ أدبيٍّ مميّزٍ لزهراء الغانم، بل يتخطّاه إلى فتح آفاق على تفاعل النّصّ الأدبيّ مع قضايا الهويّة والانتماء، ممّا يمنحُ الموضوعَ قيمةً علميّةً ونقديّةً تستحقُّ العناء. تتجلّى أهمّيّةُ هذا الموضوع في كونِهِ يُلامسُ واحدةً من أكثر القضايا إلحاحًا في المجتمعات العربيّة المعاصرة، وهي قضيّة الهويّة والانتماء الثّقافيّ في ظلِّ التّحوّلاتِ المتسارعةِ الّتي يعيشُها الفردُ والجماعةُ. فالرّواية، بما هي مرآة للمجتمع، لا تكتفي بتصويرِ صراع الشّخصيّاتِ مع محيطها، بل تكشفُ عُمقَ الإشكاليّةِ الّتي يواجهها الإنسانُ حينَ يجدُ نفسَهُ بينَ شدِّ الجذورِ الثّقافيّةِ، وضغطِ المتغيّراتِ الاجتماعيّة والفكريّة. من هنا، يصبحُ تحليل رواية "ابنة الشّرق"، مدخلًا لفهمِ ديناميّةِ التّفاعل بينَ الماضي والحاضر، وبينَ الثّابتِ والمتغيّر، وما يترتّبُ على ذلكَ من إعادةِ صياغةٍ للهويّةِ الفرديّة والطّبقيّة. وتنبع أهمّيّة هذا البحث أيضًا من كونه يسهمُ في إغناءِ النّقاشِ النّقديِّ، حول دور الأدب في حفظِ الذّاكرةِ الثّقافيّةِ من جهةٍ، وإعادةِ إنتاجها بما يتلاءمُ مع تحوّلاتِ الواقع من جهةٍ أخرى، وهو ما يجعلُ موضوعَ الهويّة والانتماء في هذه الرّوايةِ محورًا حيويًّا لفهمِ إشكالاتِ المجتمع المتغيّر.

تتأكّدُ ضرورة هذه الدّراسة، انطلاقًا ممّا تعكسُهُ "ابنةُ الشّرق"، من صورٍ دقيقةٍ للتّحوّلاتِ الّتي يشهدُها المجتمعُ على المستويين الثّقافيِّ والاجتماعيِّ، حيثُ لا تقتصرُ الرّوايةُ على رسمِ ملامحَ فرديّةٍ للشّخصيّاتِ، بل تقدّمُ نموذجًا كاشفًا لطبيعةِ العلاقةِ بينَ البنيةِ السّرديّةِ والواقع المتغيّر. إنَّ التّوقُّفَ عندَ هذه التّحوّلاتِ، يُتيحُ قراءةً أعمقَ لمسار الأدبِ كأداةٍ لفهمِ المجتمع وتفسيرِ ديناميّاتِهِ، خصوصًا حينَ تتجسّدُ عبر السّردِ صراعاتُ القيمِ، وإعادة توزيع الأدوار الطّبقيّة، وتبدُّل أنماط التّفكير، ومن هنا، فإنّ أهمّيّة هذا البحث لا تكمنُ في الجانبِ الأدبيِّ فحسبُ، بل أيضًا في ما يقدّمُهُ من مقاربةٍ نقديّةٍ تسلّطُ الضّوءَ على قدرةِ النّصِّ الرّوائيِّ على رصدِ حركةِ المجتمع، وتسجيل تحوّلاتِ الثّقافة، ممّا يجعلُ دراسته ضرورةً لفهمِ العلاقةِ الجدليّةِ بينَ الإبداع، وبينَ التّحوّل الاجتماعيِّ. وقد ارتأيتُ أن أتوكّأ على المنهج التّحليليّ الوصفيّ، في دراستي هذه، وهو أسلوبٌ بحثيٌّ يقوم على وصف الظّاهرةِ، كما هي في الواقع، وجمع المعلومات الدّقيقة عنها، ثمّ الانتقال إلى تحليل هذه المعلوماتِ للكشفِ عن العلاقات، والأسباب، والدّلالات الكامنة وراءها. يعتمد هذا المنهج على الملاحظة، والتّفسير، وربط الوقائع ببعضها للوصول إلى نتائج علميّة. ويُستخدم بكثرةٍ في الدّراساتِ الأدبيّةِ والاجتماعيّة والتّربويّة، لقدرته على الجمع بين الوصف الموضوعيّ والفهم العميق. فهو لا يكتفي بعرض الحقائق، بل يسعى إلى تفسيرها وتقديم رؤية شاملة عنها. لمحة عامّة عن

روايـة " ابنـة الشّـرق" للكاتبـة زهـراء الغـانم: الكاتبـة زهراء الغانم ولدت في مدينة القطيف السّعوديّة عام ١٩٦٧م، ومن أبرز نتاجاتها: "ابنة الشّرق" و"رائحة المطر"، وهي روائيّةٌ معاصرةٌ مهتمّة بتناول قضايا الإنسان العربيِّ في علاقتِهِ بمحيطِهِ، مركّزةً على ثنائيّةِ الجذور الثّقافيّةِ والرّهانات الجديدة الّتي يفرضُها الواقعُ. أمّا أسلوبُها فيتّسمُ بالسّلاسةِ والقدرةِ على رسمِ ملامحِ الشّخصيّاتِ بعمقٍ نفسيٍّ واجتماعيٍّ، ممّا يجعلُ نصوصَها قابلةً للتّأويلِ النّقديّ من زوايا متعدّدةٍ. وتُعدُّ روايتها "ابنة الشّرق" منَ الأعمالِ السّرديّةِ الّتي سعت إلى مقاربةِ قضايا اجتماعيّة وثقافيّة شائكة، عبر رصد مسار شخصيّاتِها، وهي تواجهُ صراعاتِ الهويّة والانتماء، في بيئةٍ متأرجحةٍ بين موروثاتِ الماضي وتجديد الحاضر، وهي تعتمدُ على بنيةٍ دراميّةٍ مكثّفةٍ، تضيء على التّحوّلاتِ الطّبقيّةِ والثّقافيّة، الّتي تتركُ بصمتها في تشكيلِ وعيِ الفردِ ومكانته في المجتمع.

٢. الإطارُ النّظريُّ العامّ

٢-١. الهويّة الثّقافيّة والانتماء

٢-١-١. الهويّة الثّقافيّة

١ ـ التّعريف اللّغويّ: تدلُّ كلمةُ "هويّة" في اللّغة على حقيقةِ الشّيءِ وماهيّتِهِ، الّتي تميّزُهُ عن غيرِهِ من الموجوداتِ، فهي "الصّفةُ الجوهريّةُ الملازمةُ للذّاتِ، والّتي لا تختلطُ بغيرِها".[١]

أمّا الثّقافة فهي من الجذرِ(ث ق ف)، الّذي يدلُّ على الإدراكِ والتّهذيبِ والتّعليمِ، "ويُقالُ: "ثقفَ الشّيء"، أيْ قوَّمَهُ وحسَّنَهُ، ومن هنا، جاءتِ الثّقافةُ بمعنى العلمِ والمعرفةِ والعاداتِ والتّقاليد".[٢]

٢ ـ التّعريف الاصطلاحيّ: عرّف سعيد إسماعيل علي الهويّة بأنّها:" جملة المعالم المميّزة للشّيء الّتي تجعلُهُ هو هو، بحيث لا تخطئ في تمييزهِ عن غيرهِ من الأشياءِ، ولكلِّ إنسانٍ نسقُهُ القيميُّ ومعتقداتُهُ وعاداتُهُ السّلوكيّة وثقافتُهُ الّتي تحدّدُ هويّته".[٣]

أمّا محمّد الشّباسيّ، فقد عدّ الهويّة الثّقافيّة بأنّها:" الأنماط والسّمات المميّزة للأمّةِ، كاللّغة والدّين والعادات والتّقاليد وطرائق التّفكير، ممّا يحفظُ للأمّةِ خصوصيّتَها المتجدّدة عبر التّاريخ".[٤]

كما ترى نازي الوكيل أنّها:" الخصائصُ المشتركةُ الّتي تميّزُ المجتمعَ العربيَّ، والمتمثّلة في اللّغةِ والدّين والعرف والخبرات الّتي تُكسِبُهُ خصوصيّتَهُ".[٥]

٣ ـ مكوّنات الهويّة الثّقافيّة: انصبّتِ الدّراساتُ السّاعية إلى الإحاطةِ بمكوناتِ الهويّة الثّقافية، لتخرجَ بإجماعٍ مفادُهُ: تتكوّنُ من عناصرَ أساسيّةٍ ومنها: اللّغة، الدّين، أو العقيدة، التّاريخ والتّراث، العادات والتّقاليد والأعراف الاجتماعيّة، بالإضافةِ إلى منظومةِ القيمِ والمعتقداتِ والسّلوكيّاتِ، الّتي تنظّمُ حياةَ الفردِ والجماعةِ.

٢-١-٢. الانتماء

١ ـ التّعريف اللّغويّ: "يُشتَقُّ لفظ "انتماء" من الفعل "انتمى"، أي انتسبَ إلى شيءٍ، وصارَ عضوًا فيه، وله علاقة وصل ورابطة".[٦] ويُستخدمُ الانتماء بمعنى

---

(١) مجمع اللّغة العربيّة، المعجم الوسيط، القاهرة، دار الدّعوة، ٢٠٠٤م، ج٢، ص ١٠١٠.

(٢) م.ن.ص ١٠١٠.

(٣) علي، سعيد إسماعيل، الهويّة والثّقافة: دراسات في الفكر التّربويّ، القاهرة، دار الفكر العربيّ، ١٩٩٦م، ص ١٥.

(٤) الشّباسيّ، محمّد، الهويّة الثّقافيّة ومتطلّبات تنميتها لدى طلّاب الجامعة في ضوء العولمة. أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلّيّة التّربية، جامعة عين شمس، ٢٠٠٨م، ص ٣٣.

(٥) الوكيل، نازي، الهويّة الثّقافيّة في ظلّ تحدّيات العولمة، مجلّة العلوم التّربويّة والنّفسيّة، جامعة القاهرة، العدد ١٤، ٢٠١٢م، ص ١١٢.

(٦) القاضي، ماجدة أحمد، ماهيّة الانتماء ومحدّداته في المجتمع المصريّ، مجلّة العلوم الاجتماعيّة المعاصرة، المجلّد ٧، العدد ٢، جامعة عين شمس، ٢٠١٥م، ص ٧٨.

"الارتباط الوجدانيّ والفكريّ والعمليّ، بين الفرد والجماعة، أو الوطن، أو الثّقافة".[١]

٢ ـ التّعريفُ الاصطلاحيُّ: الانتماء من وجهة نظر ماجدة أحمد القاضي هو: " الولاء والعلاقة النّفسيّة والفكريّة، الّتي تربطُ الفردَ بالمجتمع، أو الوطن، والّتي تتجسّدُ في مستوياتٍ متعدّدةٍ: وطنيّة، دينيّة، ثقافيّة..."[٢]

كما تشيرُ بعضُ الدّراسات إلى أنّ الانتماءَ يتجاوزُ مجرّدَ الانتسابِ، ليشملَ الالتزام العمليّ والقيميّ، الّذي يترجمُ الهويّة إلى سلوكٍ.

٣ ـ مكوّنات الانتماء: يتمظهرُ الانتماءُ في جوانبَ متعدّدةٍ:

- **العاطفيّ:** ويتمثّلُ في شعور الفردِ بالفخر والاعتزاز بالانتماء إلى جماعتِهِ.
- **المعنويّ/ الرّوحيّ:** وهو الّذي يتعلّقُ بالقيم والعقيدةِ.
- **الاجتماعيّ:** ويتجسّدُ في التّفاعل والمشاركةِ في الممارساتِ الثّقافيّةِ والاجتماعيّة.
- **السّلوكيّ/ العمليّ:** وهو عبارةٌ عن المحافظةِ على اللّغةِ، والالتزام بالعاداتِ والتّقاليدِ، والمشاركة الوطنيّة.

٢ـ١ـ٣. العلاقةُ بينَ الهويّةِ الثّقافيّة والانتماء

انطلاقًا ممّا ذُكر، يمكن اعتبار الهويّة الثّقافيّة بمنزلةِ الأرضيّة، أو الأساس الّذي يُبنى عليه الانتماء، فهي تحدّدُ للفردِ معالمَ ذاتِهِ، ومكانَهُ في المجتمع، بينما يمثّلُ الانتماءُ التّطبيقَ العمليَّ للهويّةِ، من خلال السّلوكِ والممارسةِ، أي أنّ الهويّة تحدّدُ الخصوصيّة، والانتماء يترجمُها إلى التزامٍ وولاءٍ. ومن هنا، فإنّ "أيَّ خللٍ في الهويّةِ، بفعل العولمةِ، أو الاستلاب الثّقافيّ، ينعكسُ سلبًا على درجةِ الانتماء".[٣]

٣. الهويّة الثّقافيّة في الرّواية

تتصدّرُ روايةُ " ابنة الشّرق" موضوعَ الهويّة الثّقافيّة، بوصفها محورًا مركزيًّا لصراع الشّخصيّة المحوريّة مع محيطها الاجتماعيّ والتّاريخيّ، فتتّخذُ الرّواية من تجربةٍ شخصيّةٍ ملحميّةٍ، مسارًا سرديًّا، يؤسّسُ لفهمِ الهويّةِ، بوصفها عمليّة ديناميكيّة لا كفكرةٍ جامدةٍ، وتستكشف التّحوّلات الّتي تؤثّرُ على الوعي الذّاتيِّ والانتماءِ الجماعيّ، في مجتمعٍ يرزحُ تحتَ وطأةِ التّغيّر الاجتماعيّ والتّداخل الثّقافيّ.

٣ـ١. ثنائيّة الذّات/ الغير: بناء الهويّة عبر مواجهةِ الآخر

تُظهرُ الرّوايةُ أنَّ الهويّة تتشكّلُ بالأساس في التّفاعل مع "الآخر" ـ أفرادًا، أو قيمًا، أو قوى خارجيّة ـ بطلة الرّواية "عايدة"، تعيشُ شدًّا بينَ أنسنةِ ذاتِها، بحسبِ تراكماتٍ محليّةٍ (التّقاليد، اللّغة، الذّكريات العائليّة)، وبين ضغطِ نماذجَ جديدةٍ من التّفكيرِ والسّلوكِ. هذه الرّوايةُ توظّفُ مشاهدَ اجتماعيّةً وديناميكا عائليّةً لتبيان أنّ الوعيَ بالهويّةِ، ينشأُ في لحظةِ المقارنةِ والمواجهةِ، لا في الفراغ. تطالعنا البطلةُ في تذمّرها من ماضيها المؤلم، بعد سلسلةٍ من الصّدماتِ الأسريّة والمجتمعيّة، متحدّثةً إلى صديقتها فريال، الّتي تصرُّ على دعوتِها إلى سهرةٍ تقيمها للأصدقاءِ في منزلها:" كما لو أنّكِ لا تعلمينَ بما أمرُّ به في هذه الفترةِ. إنّها أيّامٌ صعبةٌ عليّ!" [٤] فهي فهي تفضّلُ الابتعادَ عن النّاس، والانزواءَ في بيتِها الكئيبِ، على أن ترى الأزواجَ منهم يرفلون بنعيمِ السّعادةِ الّتي حُرِمَتْ منها قسرًا:" ... بالإضافةِ إلى أنّ المدعوينَ سيكونون من الجنسين، ممّا يعني بأنّ كلَّ واحدةٍ منهنّ

---

(١) موقع موضوع، "معنى الانتماء"، تاريخ الدّخول: ٢٣ أيلول ٢٠٢٥. mawdou3. Com .

(٢) القاضي، ماجدة أحمد، م.س.ص٧٨.

(٣) مصطفى، فاطمة الزّهراء سالم، مفهوم الهويّة الثّقافيّة وتداعياته في الفكر التّربويّ المصريّ المعاصر، أطروحة دكتوراه، جامعة عين شمس، ٢٠٠٧م، ص ٤١ ــ ٤٥.

(٤) الغانم، زهراء، ابنة الشّرق، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، السّعوديّة، الرّياض، ٢٠١٨، ص ٤.

ستصطحبُ معها زوجها، أو حتّى خطيبها، أمّا أنا..."[١]، واستطردت بتنهّدٍ تبدي قلقًا ممّا قد يسمعونها من كلامٍ لا تقوى على التّفكيرِ فيه حتّى:" ... من الصّعب عليّ مواجهة الآخرين، خاصّة في هذه الفترة، فجرحي كما تعلمين لا يزال طريًّا".[٢][٣] هذا الرّفضُ الذي يعكسُ الخوفَ من مواجهةِ الذّاتِ، والتّأقلم مع واقعٍ جديدٍ فرضته عليها الظّروفُ، بحكمِ خيانةٍ تعرّضت لها على يدِ صديقتِها المقرّبة إليها، والّتي جعلتها في النّتيجةِ وحيدةً فارغة القلب إلّا من الألمِ، لم تلبثْ أن تحوّلت حماسًا حقيقيًّا لخوضِ غُمارِ حياةٍ جديدةٍ، مع شخصٍ يختلفُ عنها انتماءً وقيمًا وتقاليد، هذا الشّخصُ جعلها تعيدُ ترتيبَ أولويّات حياتها المبعثرة، وفق قناعاتٍ جديدةٍ، تقرّبُ البعيدَ، وتبعدُ قريبًا أمعنَ في إيلامِها وأذيّتها، وحينَ قصدت بيت فريال، " لم تكن عايدة تعلمُ بأنّها تسيرُ نحوَ رسمِ قدرها، وإنّ هذه السّهرةَ الّتي رفضت ـ في البدايةِ ـ أن تحضرَها، سوف تكون منعطفًا خطيرًا في حياةٍ لم تتوقعْ أنّها ستعيشها في يومٍ ما...".[٤] خصوصًا أنّها متعلّقةٌ ومرتبطةٌ بجذورِ أرضِها ووطنِها، لا تقوى على فراقهما أبدًا، فَـ:"كلّ شيءٍ في هذه الأرض يسحبُها إليه، ويصرخ: هذا هو انتماؤكِ...". إنّها تنتمي إلى ذلك المكان بالوراثة عبر جيناتها، الّتي تكفّلت بنقلِ الانتماءِ من دونِ تدخّلٍ منها:" فالأصالة طبعتها بطابعها، وجعلت هويّتها واضحةً، في طريقةِ كلامِها، وحضورها، وروحها الميّالة إلى الدّعابة الأصيلة، والطّرفة الشّعبيّة".[٥] وتبرزُ تساؤلاتٌ تطرحُ قضيّة التّغيير والانتقال من نمطٍ حياتيٍّ إلى آخرَ مختلفٍ تمامًا، في رحلةِ المجهولِ الّتي يسافر عبرها الإنسان، فلا يتبيّنُ ملامحَها إلّا حينَ تتوضّحُ له مصادفةً:"هل من المعقولِ أن تكون كلّ هذه الحياة الّتي تحياها، ما هي إلّا تمهيد إلى حياةٍ أخرى مختلفة كلّ الاختلاف، وبعيدة كلّ البعد عن ما نشأت عليه"؟[٦] يتبدّى سلوكُ عايدة ناضجًا بالرّومانسيّةِ، فهي تعشقُ اللّيلَ والطّبيعة، وتركنُ إلى الانعزالِ والهدوء، بعيدًا من الصّخب والضّوضاء:" تلوذ بوحدتِها مبتعدة عن الضّجيج، منسحبة إلى اللّيلِ وعتمته، تنظرُ إلى القمر المتربّع في السّماء...".[٧] وتذوبُ حناياها حناياها بصوتِ الطّرب القديم الأصيل متمثّلًا بأمّ كلثوم:" والشّوق... آه من الشّوق... أذاب اللّحن قلبَها...".[٨] هي مجبولةٌ على ثقافةِ مجتمعها اللّبنانيِّ المُحبِّ للطّربِ الأصيل، يندمجُ في سحرِ عناصرِ الطّبيعةِ ومكوّناتها، وسط السّمر وتعالي الضّحكاتِ العفويّة الّتي يتصرّفُ أصحابُها على سجيّتهم، فلا تقيّدهم قيودٌ، ولا تثنيهم عن التّمتّع بملذّاتِ الحياةِ من سهرٍ وطربٍ ولهوٍ أيُّ عوائق، أو موانع قسريّة، فالجوّ العامّ يتيحُ الاختلاطَ بين الذّكورِ والإناثِ في بيئةِ عايدة وفريال، والتّزمّت، أو النّظر إلى المرأةِ بفوقيّةٍ غير ملحوظين. لعلّ هذه الأفكار تنسحب على حياة كرستين، كنّة عايدة المستقبليّة، لدى تعرّف والديها على عدنان زميل الدّراسة، فَـ " هو في أوّل زيارة إلى بيتها، لاحظ دماثة أخلاق أبويها وهما يرحّبان به، والدّهشة الّتي علت وجهه، حين لم يبديا أيّ اعتراضٍ، كون ابنتهما تقيم علاقة صداقة مع رجلٍ، ولا سيّما أنّه من الشّرق...".[٩]

٣-٢. اللّغة والذّاكرة كعمودين للهويّة

تؤدّي اللّغة في الرّوايةِ دورًا حارسًا للذّاكرةِ والهويّةِ، فهي ليست مجرّد وسيلة تواصل، بل حافظة للطّقوسِ والعلاقاتِ ومعاني الانتماء، حيث تظهرُ الرّوايةُ كيف أنّ فقدان بعض مفردات الطّقوس، أو عدم استخدام لغة معيّنة يؤدّي إلى تآكل إحساس الشّخصيّةِ بجذورها. لذلكَ

(١) الغانم، زهراء، ابنة الشّرق، ص ٤.

(٢) م.ن. ص٤.

(٣) الغانم، زهراء، ابنة الشّرق، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، السّعوديّة، الرّياض، ٢٠١٨،ص٥.

(٤) ابنة الشّرق، ص٥.

(٥) ابنة الشّرق، ص٨.

(٦) ابنة الشّرق، ص ٨.

(٧) الغانم، زهراء، ابنة الشّرق، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، السّعوديّة، الرّياض، ٢٠١٨، ص ١١.

(٨) ابنة الشّرق، ص ١١.

(٩) ابنة الشّرق، ص ٥٢.

تُعرَضُ مفرداتُ الطّفولة، التّعبيرات العائليّة، والأمثال كآليّاتٍ لتثبيتِ الانتماء. وفي سياق تعرّفها إلى قدرها، تواجهُ عايدة عبد الباقي السّكّريّ في السّهرةِ المفصليّة، فتكون وجهًا لوجهٍ مع اختلافِ اللّهجاتِ، مع اختلاف موطنيهما:" مدّ إليها يده ليصافحها، وهو ينظرُ في عينيها مباشرةً، قائلًا: عبد الباقي السّكّريّ، من السّعوديّة".(١) وتخوضُ رحلتها الجديدة في موطنٍ آخرَ، تختلفُ عاداتُهُ وتقاليدُهُ وأعرافُهُ عمّا اعتادت عليه في موطنِها، فيساورُها إحساسٌ بالغرابةِ حين تلتقي بأقارب زوجِها المذكور، على الرّغمِ من مشاعرِ المحبّةِ والمودّةِ والاحترامِ المتبادل بينها وبينهم، ممّا جعلها تؤثرُ الوحدة على الاختلاطِ والاندماجِ في مجتمعها الجديد، بحكم طبعها الميّال إلى الانعزال، ممّا أدّى إلى تخبّط زوجها في تيّار القلق على تركها وحيدة، للاهتمام بأعماله الّتي أهملها فتراجعت إنتاجيّتُها، وعمّ الكسادُ ردحًا من الزّمن، لم يطاوعْهُ قلبُهُ على مفارقتِها فيه:"كيف سأسافر عنها وأتركها هنا وحدها، وهي قليلة الاختلاط بالنّاس والجيران؟ حتّى زيارتها لبيوت أخواتي، أو حتّى زوجات أخوتي قليلة، بالرّغم من أنّ الجميعَ أحبّها، وهي في المقابل أحبّتهم، إلّا أنّ عايدة استمرّت على طبائعها في تفضيل العزلة".(٢) لكنّ عايدة تجدُ في مهديّة المستخدمة الّتي تعمل لديها، وتعينها في الاهتمام بشؤون البيت، ملاذًا آمنًا في وطنٍ غريبٍ عليها، لا تعرفُ شيئًا عن سلوك أهله، ولا عن عاداتهم وتقاليدهم، فكانت بحكم المَعين الّذي تروي منه ظمأها إلى المعرفةِ، لتضحيَ عارفةً بما جهلت بفضل تلكَ المرأةِ الطّيّبة، إذ:" ... يكفيها أنّها تؤنسُ وحدتها، وتُرفّهُ عنها، كما أنّها بثرثرتِها هذه جعلتها تألفُ البلدَ، وتفهم عادات أهله، وكأنّها عاشت فيه زمنًا طويلًا...".(٣)

٣-٣. المرأة والهويّة: البطل/ الرّمز

تحوّلُ الرّوايةُ المرأةَ إلى مِقياسٍ لقياسِ متانةِ الهويّةِ الثّقافيّة، إذْ تُبرزُ شخصيّة البطلة كـ "ابنة"، تحملُ تراثًا ومطالبَ تجديديّةً في آنٍ واحدٍ. إنّ دورَ المرأةِ في الرّوايةِ مزدوجٌ: فهي حاملةٌ للخصوصيّةِ الثّقافيّةِ، وفي الوقتِ ذاتِهِ صانعةٌ لتغييرِها، الرّوايةُ تقرأُ المرأةَ كمساحةِ صراعٍ بينَ المحافظةِ والتّحديثِ. البطلةُ تعملُ على خلقِ مساحةٍ خاصّةٍ بها داخلَ جدرانِ بيتٍ مُحاطٍ بتقاليدَ صارمةٍ، فتجعلُ من جدرانِ البيتِ مسرحًا لإعادةِ صياغةِ هويّتها:" النّعمة هو أن يكون حولنا أشخاص نأمن برفقتهم على أنفسنا.... الشّعور بالأمانِ حين ينام وهو يعلم بأنّه سيستيقظُ غدًا، وسيجدُ سقفًا لبيتٍ يحميهِ...".(٤)

٣-٤. الأصالة والمعاصرة: مسألة التّوفيق وليس الرّفض

تتناولُ الرّوايةُ ثنائيّة الأصالةِ والمعاصرةِ بموضوعيّةٍ نقديّةٍ: ليست دعوةً للانعزالِ عن الحداثةِ، ولا اقتراح للتّبعيّةِ، بل بحثٌ عن صيغةٍ توافقيّةٍ تُمكّنُ الشّخصيّة من مواكبةِ العصرِ دونَ تمزُّقِ الجذورِ. يظهرُ ذلكَ في مواقفِ البطلةِ عندما تقرّر التّعليم، أو تبنّي أساليب حياة جديدة، مع المحافظةِ على طقوس الاحتفاء والموروث.

٣-٥. الانتماء الجماعيّ والهشاشة الثّقافيّة

تُبيّنُ الرّوايةُ أنّ الانتماءَ ليس دائمًا آليّة حماية، ففي بعضِ الحالاتِ يتحوّلُ إلى آليّةٍ لضغطٍ اجتماعيّ تُنزعُ فيهِ الحرّيّات، لكنّه في أحيانٍ أخرى يمنح الأفرادَ شعورًا بالانتماءِ والأمانِ، حيث تعرضُ الرّوايةُ مستويات انتماء مختلفة (عائليّ، مجتمعيّ، ووطنيّ)، مظهرةً كيف تتقاطعُ لتشكّلَ شعور البطلة بذاتِها.

٣-٦. التّمثيلات السّرديّة للهويّة: السّرد كإعادةِ تشكيلٍ

تستخدمُ الرّوايةُ تقنيّاتٍ سرديّةً (الاسترجاع، الرّاوي غير الكلّيّ، المقاطع السّيرياليّة)، لتصويرِ هجرةِ الذّاكرةِ، تراكم العوائق، ولحظات الاستيقاظ على الهويّة، إذ تنحازُ

(١) ابنة الشّرق، ص ١١.

(٢) الغانم، زهراء، ابنة الشّرق، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، السّعوديّة، الرّياض، ٢٠١٨، ص ١٨.

(٣) ابنة الشّرق، ص ١٨.

(٤) الغانم، زهراء، ابنة الشّرق، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، السّعوديّة، الرّياض، ٢٠١٨،

اللّغةُ السّرديّة في كثيرٍ من الأحيانِ إلى الاستبطانِ النّفسيّ، ما يجعل النّصَّ فضاءً لتجريبِ أشكالِ الهويّةِ المختلفةِ قبل تثبيتها، أو التّخلّي عنها، ويتبدّى ذلك في مخاطبة عبد الباقي نفسه سارحًا في الماضي:" ... لزيارة والدي الّذي بقي وحيدًا في البيت الكبير بعد أن توفّيت والدتي.... فضّل على ذلك العيش وحيدًا يستحضر ذكرى أمّي..."[١].

الخلاصة

تؤكّدُ ابنةُ الشّرق لزهراء الغانم أنّ الهويّة الثّقافيّة، ليستِ امتدادًا ثابتًا لوراثةٍ سلبيّةٍ، لكنّها ساحةُ عملٍ ومفاوضة دائمة، من خلال تراكمِ التّوتّراتِ بينَ اللّغةِ والذّاكرةِ، بينَ المرأةِ والتّقاليد، وبينَ الأصالةِ والمعاصرةِ، ترسمُ الرّوايةُ صورةً متحرّكةً للهويّةِ، قابلة لإعادةِ البناءِ، عرضة للتّمزّق، لكنّها قابلةٌ أيضًا للتّجديدِ. في خضمِّ هذه العمليّة، تقفُ البطلةُ كرمزٍ لامتحانِ الأمّةِ في كيفيّةِ الموازنةِ بين حفظِ الجذور والاستجابة للتّحوّلاتِ.

٤. التّحوّلات الاجتماعيّة

تعكسُ رواية "ابنة الشّرق" تحوّلاتٍ اجتماعيّةً جذريّةً شهدها المجتمعُ العربيُّ في النّصفِ الثّاني من القرنِ العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، فالسّردُ يرافقُ الشّخصيّاتِ عبر أجيالٍ متعاقبةٍ، ليكشفَ مسارَ الانتقالِ من التّقاليدِ الصّارمةِ، إلى الانفتاحِ التّدريجيِّ، ومن الاقتصادِ التّقليديِّ إلى الحداثةِ، ومن سلطةِ العائلةِ إلى حرّيّةِ الفردِ، ومن تقديسِ العواطفِ النّبيلة تجاه الزّوجة، إلى إلحاقها بأخرى ونبذها، في تقلّباتٍ شعوريّةٍ غير مفهومة، تشرذمُ العائلة تحتَ مسمّياتٍ مختلفةٍ، هذه التّحوّلاتُ ليست مجرّد خلفيّة للأحداثِ، بل تمثّلُ محورًا دلاليًّا يكشفُ عن صراع الهويّةِ والانتماءِ.

٤-١. التّحوّلاتُ الأسريّة والعائليّة

تبرز الرّوايةُ دور الأسرة كفضاء للتّوتّر بين الأجيال:

نرى شخصيّة عايدة اللّبنانيّة الّتي تنفصلُ عن خطيبها بفعلِ الخيانةِ، لتبدأ من جديد بزواجها من عبد الباقي رجل الأعمال السّعوديّ، حيث ارتاحت فريال لهذه الفكرة، بمجرّد رؤيةِ العاشقين يتعارفان على بعضهما ويتسامران في منزلها:" لقد بذر الحبّ من جديد يا عايدة! وستحصدين سعادته". [٢] لكنّ الجيل التّالي متمثّلًا بعدنان وزوجه كرستين الأمريكيّة، لم يهنأ بحياةٍ أسريّةٍ مستقرّةٍ، نتيجة الاختلاف الثّقافيّ والفكريّ بينهما، ممّا جعله يُغرمُ بأخرى، " ذات قوام ممشوق، وبشرة لوّحتها الشّمس..."[٣] والأدهى من ذلك اعتبار محمّد أنّه " من الطّبيعيّ أن يغرم أبوه بحسناء، فهي تمتلك الشّبابَ، والأنوثة"[٤]، بالإضافة إلى صفاتها الدّاخليّة الّتي تنعكس في تصرّفاتها وسلوكها الجذّاب، فَـ "ذكاؤها الحادَ يخوّلها لمعرفة كلّ ما يقع في دائرة اهتمام والده"[٥]، هذا ناهيك عن قدرتها العالية على الإغراء، " ومن لديه القدرة على مقاومة إغرائها"؟[٦]

ممّا يعكسُ هشاشة البنية التّقليديّة للأسرة، أمام التّغيّرات الاجتماعيّة. وفي متابعة مسار عدنان الّذي يكبرُ بعد وفاةِ والدِهِ، تطالعنا أمّه راغبة في أن يحقّقَ حلمَ والده باستكمال دراسته الجامعيّة، ما يدلُّ على تحوّل الأسرة إلى داعمٍ للتّعلّم والاندماج في العالم الجديد. والأمّ نفسُها "عايدة"، تبارك زواجه من أمريكيّة "كرستين"، الّتي استوحت الطّيبة في وجهها المريح والملائكيّ، لكنّها تتعاملُ مع زيجته الثّانية ببساطةٍ تامّةٍ، فتنصح حفيدها بالتّحرّر من القلق الّذي يسيطر على كيانه:" لماذا تضيّع ساعات حياتك في القلق، فأنت لا زلت في مقتبل العمر"؟[٧] فما كان من الشّابّ إلّا أن حاول إحاطتها بما يعانيه " الكلام سهل يا جدّتي، لو أنّكِ تعيشين يومًا واحدًا

(١) ابنة الشّرق، ص ٢٠.

(٢) ابنة الشّرق، ص ١٢.

(٣) ابنة الشّرق، ص ١١٢.

(٤) ابنة الشّرق ص ١٠٩.

(٥) ابنة الشّرق، ص ١٠٩.

(٦) ابنة الشّرق، ص ١٠٩.

(٧) ابنة الشّرق، ص ١١٥.

مع كلّ الصّراع الّذي يدورُ بين كرستين وحسناء، لما قلتِ هذا الكلام".[١]

٤-٢. التّحوّلات التّعلّميّة والمعرفيّة

التّعلّم يظهر في الرّوايةِ كرمزٍ صريحٍ للانتقال الاجتماعيّ:

عدنان يتابع دراسته الجامعيّة في أمريكا، بضغطٍ من أمّه الّتي" أصرّت على أن تحقّق رغبة والده في أن يكملَ ابنه الوحيد دراسته الجامعيّة في أمريكا"،[٢] وهو ما يمنحه موقفًا مختلفًا عن جيله السّابق، الّذي كان محصورًا في محيطِ الأسرة والاقتصاد التّقليديّ. الجيل الجديد ممثّلًا في عدنان، وابنه لاحقًا، يتعامل مع التّعليم، كأداة تمكين اجتماعيّ ورمز للمكانة، في حين أنّ الجيل الأكبر(الأب والجدّ)، ظلّ متعلّقًا بالقيمِ التّقليديّةِ.جيل الأبناء المنبثق عن الجيل الجديد، مجسّدًا في محمّد السّعوديّ ـ الأمريكيّ، ورؤى الفتاة السّعوديّة ـ العراقيّة، يتعامل مع التّعليم في المهجر الأمريكيّ بوصفه وسيلة مزدوجة. لاكتساب العلم، وللهروب من جوِّ المشاحناتِ التّقليديّ في الأسر العربيّة، بما يسودها من محاولاتٍ حثيثةٍ لفرض السّلطة الأبويّة بالكامل، هذا ناهيك عن دوافع رؤى الإضافيّة المتمثّلة في الهروبِ من الحروب العراقيّة المدمّرة، فـ "البلد منكوب"،[٣] ومن النّقص في الخدماتِ الأساسيّة للمجتمع" فالكهرباء تنقطع باستمرار، والماء النّقيّ غير متوفّر إلّا بحدودٍ ضيّقةٍ جدًّا..."[٤]، بالإضافةِ إلى التّجافي التّجافي عن عائلة والدها الّذين رفضوا سابقًا زواجه بأمّها، فتجلّى البرود في معاملتهم لها بعد أن شبّت" شعرت ببعض الهدوء يعاودها حين قوبلت هي وأمّها بكلّ ذلك الفتور"،[٥] وتبلور هذا الفتور في لقائهما الأوّل بعد زمنٍ" فهي لم ترَ واحدةً من الجالساتِ في صالةِ البيت هبّت لاستقبالهما".[٦] وتتعرّض لانتقاد لباسها الّذي لا يتلاءمُ مع العادات والتّقاليد" لماذا ابنتك لا ترتدي عباءة إلى الآن يا بدر"؟[٧] فيتجلّى ردّ والدها الخانع لسلطة الأهل والمجتمع:" حسنًا يا أمّي! من الغد سوف أخرجُ إلى السّوق برفقة أمّها لنشتري لها عباءة".[٨]

ويساورها الشّعور بالضّيق من تلك النّظراتِ والملاحظات، فَـ "لم تصدّق رؤى أنّها أفلتت من ذلك الاجتماع المفعم بالاضطرابِ، وأنّها أخيرًا تنفّستِ الصّعداء...".[٩]

٤-٣. التّحوّلات في أدوار المرأة

المرأة في الرّواية ليست مجرّد تابع، بل فاعلة في التّغيير: الأمّ اللّبنانيّة تتحوّلُ من امرأةٍ مهمّشةٍ بعد خيانةِ ابن عمّها لها، إلى شخصيّةٍ واثقةٍ تبحثُ عن الاستقرار والانتماء مع عبد الباقي. لاحقًا، شخصيّاتٌ نسائيّةٌ مثل كرستين (الفتاة الأمريكيّة)، تجسّدُ صورةَ المرأة المستقلّة القادرة على اتّخاذ قراراتها في الزّواج والعيش، لكنّها سرعان ما تتحوّلُ إلى حالةِ تبعيّةٍ عمياءَ لزوجها، بعد انتقال الأسرة إلى السّعوديّة، ممّا يجرّد المرأة من نقاط قوّتها بوجودها في وطنها الأمّ،" فتشعر بالأسى لما طرأ على علاقتهما من تغيّرات، وتستسلم لأفكارها حول ماضي علاقتهما الّتي كانت جميلة، لكنّها تصحو على واقعٍ أليمٍ" لقد مرّ على هذه الأحداث أعوام طويلة"،[١٠] ولم تقوَ على منع نفسها من التّهكّم:" منتهى السّخرية والألم حين نهرب من الحاضر إلى الماضي السّحيق...".[١١]، لكنّها لم ترضَ نزعَ زوجها من حياتِها، لتعلّقها الشّديد به، ممّا أثار حفيظة محمّد:" لماذا لا تزال

---

(١) ابنة الشّرق، ص ١١٥.

(٢) ابنة الشّرق، ص ٢١.

(٣) ابنة الشّرق، ص ٢٠١.

(٤) ابنة الشّرق، ص ٢٠١.

(٥) ابنة الشّرق، ص ٢٠٧.

(٦) ابنة الشّرق، ص ٢٠٦ ــ ٢٠٧.

(٧) ابنة الشّرق، ص ٢٠٧.

(٨) ابنة الشّرق، ص ٢٠٧.

(٩) ابنة الشّرق، ص ٢٠٨.

(١٠) ابنة الشّرق، ص ٥٢.

(١١) ابنة الشّرق، ص ٥٢.

أمّه سجينة حبّها لأبيه"؟ [١] فالأجدر بها فعل ذلك، إلّا أنّها أنّها تفاجئه بسلوكها، فَـ "كلّما ضلع والده في الابتعاد عنها، ازدادت هي تعلّقًا به..." [٢]، ممّا يضعنا في أجواء أجواء تعلّق المرء بالممنوع والصّعب المنال، أمّا رؤى، فتمثّل صورة الفتاة الهاربة من مخاطر جمّة:"والدها قد أنقذهما هي وأمّها من نار القنابل، ومن طلقات البنادق..."[٣]. وينضافُ إلى قافلةِ النّساءِ في هذه الرّواية، الرّواية، والدة مارك "لندا"، ابن خال محمّد، الّتي خانت والده سرًّا سنواتٍ طويلةً، لعجزه عن تلبية احتياجاتها كامرأة، ممّا ورّثَ مارك الهموم والقلق والألم، " أنسى ماذا؟ الجريمة الّتي ارتكبتها أمّي"؟[٤] في سياق ردّه على على مواساة محمّد وحثّه على النّسيان، حيث لم يقتصر الأمر على ما ذُكر، بل صار جملةً من التّراكماتِ والسّلوكيّات المنحرفة الّتي وسمت حياة الشّابّ، وأبرزها الإدمان على المخدّرات، " فالمصائب إذا حلّت على الرّأس تصبح متتابعةً".[٥] ولا ننسى ضحيّة الخيانة، لورا، صديقة لندا، الّتي رفضت اعتذارها وندمها " أنتِ سافلة، لقد حطّمتِ حياتي، وقضيتِ على سعادتي..."[٦] بذلك، تصبح المرأة مرآةً للتّحوّلاتِ الاجتماعيّة، حيث يقاسُ مدى انفتاح المجتمع، أو انغلاقه عبر موقعها.

٤-٤. التّحوّلات الثّقافيّة والهويّة الهجينة

الرّواية تطرحُ سؤالًا مركزيًّا حول الهويّة المزدوجة:

الأب سعوديّ والأمّ لبنانيّة، والابن يكبر في أمريكا (عدنان)، ثمّ يتزوّج من أمريكيّة (كرستين)، ومن ثمّ يعشقُ أخرى مغربيّة ويتزوّج بها، والحفيد يُغرمُ بسعوديّة - عراقيّة...هذه التّداخلاتُ العرقيّة والثّقافيّة تكشفُ تشكّل هويّة جديدة هجينة تتجاوز الحدود الضّيّقة... زهراء الغانم، نجحت في مساءلة الآخر وتمثيله، ومساءلة المحلّيّ أيضًا، عبر منظور نقديّ يربط بين الاختلافات الثّقافيّة، وبين الوعي بالذّاتِ والآخر.

٥ - التّحوّلات الاقتصاديّة والسّياسيّة:

تتجلّى في الرّواية ملامح الانتقال من الاقتصاد التّقليديّ إلى الحديث:

- الأب يمتلك شركاتٍ ومزارع وأراضٍ، ما يعكسُ بروزَ طبقة رجال الأعمال في السّعوديّة والعالم العربيّ.
- الأبناء يتوارثون الثّروة، لكنّهم يربطونها بالتّعليم والاندماج بالغرب، لا بمجرّد الحفاظ على الإرث.
- هذه النّقلة توضح كيف غيّرت العولمة بنية الاقتصاد الأسريّ، وجعلتِ المالَ مرتبطًا بالاستثمار والمعرفة.

الخلاصة

تكشفُ روايةُ "ابنة الشّرق"، أنّ التّحوّلات الاجتماعيّة في المجتمع العربيّ، لم تكن سطحيّةً، بل غيّرت جذورَ البنى التّقليديّة في الأسرة، والتّعليم، والاقتصاد، والهويّة الثّقافيّة. وتبيّن الكاتبة أنّ هذه التّحوّلات جاءت متشابكةً: المرأة لم تعد محصورةً في أدوارها التّقليديّة، إذ إنّ التّعليمَ صارَ أداةَ ارتقاء، والعائلة انقسمت بين جيلٍ قديمٍ متشبّثٍ بالقيمِ، وجيلٍ جديدٍ منفتحٍ على الهويّاتِ المتعدّدة. ومن خلال هذا التّشابك، تُظهرُ الرّواية أنّ المجتمع العربيّ في مرحلةٍ انتقاليّةٍ، يتأرجحُ بين الانغلاقِ والانفتاح، بينَ الثّباتِ والتّحوّل، وهو ما يجعل "ابنة الشّرق"، شهادةً سرديّةً على زمنِ التّحوّلاتِ الكبرى.

٥. الشّخصيّات الرّئيسة وتطوّر الهويّة

تُعَدُّ الشّخصيّاتُ في روايةِ "ابنة الشّرق" لزهراء الغانم، الرّكيزة الأساسيّة الّتي تكشفُ من خلالها الكاتبة عن تحوّلاتِ الهويّة عبر ثلاثة أجيالٍ متعاقبةٍ، ومن خلال تتبّع مسارات هذه الشّخصيّات، يتّضحُ أنّ "الهويّة ليست معطًى ثابتًا، بل سيرورة متحرّكة تتأرجحُ بين الانتماء

(١) ابنة الشّرق، ص ١٤١.

(٢) ابنة الشّرق، ص ١٤١.

(٣) ابنة الشّرق، ص ٢٠٢.

(٤) ابنة الشّرق، ص ١٤١.

(٥) ابنة الشّرق، ص ١٤١.

(٦) ابنة الشّرق، ص ١٤٥.

للأصل، والانفتاح على الآخر، وبين الضّغوطِ الاجتماعيّة، ورغبة الفرد في الاختيار".[١]

تحليل تطوّر الهويّة الثّقافيّة للشّخصيّات الرّئيسة، ومواجهتها للصّراعات الدّاخليّة والخارجيّة:

أوّلًا: الجيل المؤسّس (عايدة وعبد الباقي):

يمثّلُ زواج عايدة اللّبنانيّة، من عبد الباقي السّكّريّ السّعوديّ، المرحلة الأولى في تشابك الهويّاتِ، فهذا الزّواجُ يُبرزُ إمكانيّة التّداخلِ بين بيئتين مشرقيّتين مختلفتين في التّقاليدِ والعاداتِ، ولكنّهما يظلّان متقاربين في المرجعيّةِ الثّقافيّةِ والدّينيّة، وعليه، يبدو "الانتماء في هذا الجيل أكثر تماسكًا، حيث يتمّ الاحتفاظ بالإطار الشّرقيّ العامّ على الرّغم من التّنوّع الدّاخليّ".[٢]

ثانيًا: جيلُ الانفتاح والاهتزاز (عدنان وكرستين):

يتّسعُ فضاءُ الهويّة مع عدنان، ابن عايدة وعبد الباقي، الّذي يختار الزّواجَ من كرستين الأمريكيّة، هذا الخيار يفتح بابًا جديدًا للتّعدّد الثّقافيّ، ويضعُ العائلة أمام صراعٍ واضحٍ بين قيمِ الشّرقِ المحافِظة، وأنماط العيش الغربيّة الأكثر تحرّرًا، وهنا، "تتحوّلُ الهويّةُ من حالة توازنٍ إقليميٍّ، إلى مواجهةٍ مباشرةٍ مع الآخر المختلف حضاريًّا، ممّا يجعلُ الانتماءَ عُرضةً للاهتزاز".[٣]

ثالثًا: حصيلة التّراكمات (محمّد):

يجسّدُ محمّد، ابن عدنان وكرستين، ذروةَ الإشكال الهويّاتيّ في الرّوايةِ، إذ يحملُ داخله خليطًا معقّدًا من الانتماءاتِ: لبنانيّة، سعوديّة، وغربيّة. هذا التّنوّع يضعه في حالة قلقٍ دائمٍ تجاه ذاته، ويجعله يبحثُ عن صيغةٍ للتّوفيقِ بينَ موروثاته المختلفة، فهو لا ينتمي كلّيًّا إلى الشّرق، ولا إلى الغرب، بل يعيش "حالةً "بينيّة"، تعكس جوهر إشكاليّة الهويّة المعاصرة".[٤]

رابعًا: رؤى وعقدة الهويّة المذهبيّة والاجتماعيّة:

تدخلُ رؤى (العراقيّة السّعوديّة)، حياة محمّد، لتفتح فصلًا جديدًا في صراع الهويّة.

- **الاختلاف المذهبيّ:** يشكّلُ أبرز عائق أمام علاقتهما، إذ يضع الانتماء الدّينيّ/ المذهبيّ حاجزًا صلبًا أمام إمكانيّة الزّواج، "ويكشفُ عن بُعدٍ آخرَ للهويّةِ، يتجاوزُ الثّقافة والجغرافيا، إلى العقيدةِ والانتماء الطّائفيّ".[٥]
- **ضغط العائلة:** أهل رؤى يرفضونَ ارتباطها بمحمّد، ويصرّون على عودتها إلى الوطن لتزويجها من قريب لها، هذا الموقف يرمز إلى "قوّة التّقاليد العشائريّة والمذهبيّة، الّتي تتحكّمُ بخياراتِ الفردِ".[٦]
- **رمزيّة رؤى:** حضورها في الرّواية ليس عاطفيًّا فحسبُ، بل هو رمز لإعادة التّوازن بينَ الشّرق والغربِ، في شخصيّة محمّد، إلّا أنّ اختلافها المذهبيّ ورفض عائلتها، يعيدان التّأكيد على "صعوبة تجاوز البنى التّقليديّة".[٧]

---

(١) سعيد، إدوارد، الثّقافة والإمبرياليّة، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٧م، ص ٢٥.

(٢) إبراهيم، عبدالله، التّخيّل السّرديّ: الهويّة والهويّة المضادّة في الرّواية العربيّة، المركز الثّقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء، ٢٠٠٥م، ص ٤١.

(٣) بابا، هومي، مواقع الثّقافة، ترجمة ثائر ديب، وزارة الثّقافة السّوريّة، دمشق، ٢٠٠٦م، ص ١١٢.

(٤) ريكور، بول، الذات عينها كآخر، ترجمة جورج زيناتي، المنظّمة المنظّمة العربيّة للتّرجمة، بيروت، ٢٠٠٥م، ص ٨٧.

(٥) كوثراني، وجيه، الهويّة والاختلاف: دراسات في المجتمع العربيّ العربيّ الإسلاميّ، المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات، بيروت، ٢٠١٢م، ص ٧٣.

(٦) أبو زيد، نصر حامد، دوائر الخوف: قراءة في خطاب المرأة، دار دار الهلال، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ٥٤.

(٧) السّيّد، رضوان، الجماعة والسّلطة والأمّة، بيروت، دار النّهار، ١٩٩٧م، ص ١٣٦.

خامسًا: دلالات التّطوّر الهويّاتيّ عبر الأجيال:

الجيل الأوّل (عايدة وعبد الباقي): هويّة إقليميّة شرقيّة متعايشة.

الجيل الثّاني (عدنان وكرستين): هويّة مأزومة نتيجة التّوسّع نحو الآخر الغربيّ، وتتفاقم الأمور بينهما حين يقع الانفصام العاطفيّ ويصبح البرود سيّد الموقف، فتعجز المرأة عن الاستحواذ على قلبِ زوجها كما في السّابق، ويستغرب ابنهما الشّابّ من مساندتها والده في الإصرار على التحاقه بأعمال والده في السّعوديّة، وهي الأمريكيّة الأصل، "بالرّغم من أنّها تعلم جيّدًا بأنّ الوضع لن يعود مع والده كما كان..."،[١] ممّا يجعل التّساؤلات تغمرُ حياة ابنهما محمّد، مقرونة بحزن عميقٍ، بسبب ضعف شخصيّة والدته، ممّا أدّى به إلى طرح أفكار متمرّدة، فَـ " لو كانت أمّه قويّة، وأرضعته القوّة والثّقة، هل كان سيتردّى بين منعطفات الألم"؟[٢] واهتزاز نفسيّ جليٍّ، جعله " يرى بأنّ من الأجدر له زيارة عيادة الطّبّ النّفسيّ، وأنّه في أمسّ الحاجة إلى المعالجة النّفسيّة".[٣] ولربّما هذا الضّغط النّفسيّ، وحال الضّياع والتّشتّت الّتي سيطرت عليه، جرّدته من مشاعر الانتماء، فَـ " هو الممزّقُ بين الجنسين، هو ليس بالغربيّ، ولا بالعربيّ...".[٤]

الجيل الثّالث (محمّد ورؤى): بحث عن التّوازن، لكنّه يصطدم "بعقبات المذهب والسّلطة الأبويّة".[٥] بالإضافة بالإضافة إلى جهل محمّد بطبيعة وطنه، وهو نتاجٌ هجينٌ لزواج عربيٍّ بأجنبيّةٍ أمريكيّة، فيطرحُ أسئلةً في سرِّهِ:" إذن أين هو الوطن؟ كان محمّد قبل أن يرحل عن أمريكا، ويعود إلى السّعوديّة، يرى أنّ وطنه هو سانديجو، حيث نشأ وتغلغل فيه... وتألّق برفقة أصدقاء لا يشعر بغربة روحه معهم..."[٦] إلّا أنّ هذه المشاعر الإيجابيّة الّتي تجسّد الانتماء بأبهى صوره، انقلبت إلى النّقيض حين ألزمَ بالسّفر إلى مسقط رأس والده السّعوديّة، وعلى الرّغم من أنّ " أباه اشترى بيتًا كبيرًا بحديقةٍ واسعةٍ في حيٍّ يُقالُ بأنّه من أفضل أحياء الخبر، لكنّ محمّد يراه حيًّا كريهًا موحشًا"،[٧] وكذلك الأمر في المدرسة الحكوميّة الّتي أصرّ والده على الرّغم من معارضة كرستين الأمر، من إلحاقه بها، ممّا جعل الشّعور بالغربة يتفاقم في أعماقه"... ضربات قلبه ازدادت حين جاءه رجلٌ وتحدّث معه بالعربيّة، نظر محمّد بعينيه الزّرقاوين نظرةً تشي بأنّه لم يفهم حرفًا واحدًا ممّا قال...".[٨] ولم يهدأ روعه مع محاولات الأستاذ لدمجه في جوّ الفصل الدّراسيّ، حيث توجّه إليه:" اسمع يا بنيّ! لا بدّ لك من أن تتعلّمَ اللّغة العربيّة، أبوك أوصاني بك، كما أنّه سوف يفرح كثيرًا حين يراك تتحدّث بلغتك الأمّ...".[٩] حين شبّ أدركَ أدركَ حجم معاناة أمّه، بعد إدراكها تعلّق زوجها بتلك المغربيّة الحسناء، إلى درجة اقترانه بها، " لا يعلم محمد تحديدًا عدد السّنين، لكنّه من المحال نسيان ذلك اليوم الّذي اكتشف فيه هو وأمّه أنّ اختفاء أبيه عن البيت بالأيّام، لم يكن لانشغاله بأعماله... وإنّما لسبب تعلّقه بتلك المرأة...".[١٠]

استكشاف كيف تؤثّر التّجارب والتّحدّيات على شعور الشّخصيّات بالانتماء:

تبلور الشّعور بالانتماء في حياة عدنان بمجرّد تعرّفه على والدي كرستين، حيث " ازداد إحساس الرّاحة لديه، وانجذابه إلى عالمها، وإلى أسلوبها في التّعامل مع الأشخاص، خاصّة أنّ والديها تعاملا معه بأريحيّة،

(١) الغانم، زهراء، م،س، ص ٣٠.

(٢) الغانم، زهراء، م،س، ص ٢٨.

(٣) الغانم، زهراء، م،س، ص ٢٩.

(٤) الغانم، زهراء، م،س، ص ٣٠.

(٥) كمال، هالة، الهويّة الجندريّة في السّرد العربيّ المعاصر، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠م، ص ٩٨.

(٦) الغانم، زهراء، م،س، ص ٣٢.

(٧) ابنة الشّرق،ص ٣٥.

(٨) م،ن، ص ٣٦.

(٩) م،ن، ص ٣٨.

(١٠) م،ن، ص٤١.

وشعر بحنانهما تجاهه، وأولياه ثقة واحترامًا".[١] فكان رأيه فيهما ممتازًا، معتبرًا أنّ " هذين الشّخصين لا بدّ وأن يُنجبا ابنة في مثل طيبة كرستين وتواضعها".[٢] إلّا إلّا أنّ هذا الانجذاب الفتّاك إلى الفتاة وذويها، لم يلبث أن بردت جذوته بعد أن تزوّجَ بها، وأنجب منها ابنه محمّد، و"لم يفلح أيّ شيء تبذله كرستين لإذكاء ناره مرّة أخرى..."[٣] فهل سيطرت عليه عقليّة الرّجل الشّرقيّ الّذي يودُّ أن يندهشَ دومًا بتجدّد المرأة وقوّتها؟ " هذا ما يتصوّره محمّد، فوالده به تَوقٌ دائمٌ إلى كلّ ما هو خاصّ وفريد..."[٤] من المعلوم أنّ المرأة تشعر بتغيّرات زوجها حين يُغرم بأخرى، لرهافة مشاعرها، وحساسيّتها المفرطة، خصوصًا إذا ما كانت متعلّقة به، وهو حال كرستين الّتي تخشى من فكرة فقدانه،" لا أستطيع العيش بدون أن يكون له وجود في حياتي، وهو الّذي يمتلك المال، والمكانة الاجتماعيّة..."[٥] ممّا يترجم الشّعور بالانتماء إلى ظلّ الرّجل الّذي يمتلك مقوّمات الحياة المادّيّة، لتصبح في حالة تبعيّةٍ له، لا تقوى على الانفصال عنه بأيّ شكلٍ من الأشكال، الأمر الّذي يفسّر استمرارها في حياته مرغمةً بعد انكشاف حقيقة حبّه وارتباطه بحسناء المغربيّة، فيؤلمها هجرانه العاطفيّ بعد تضحياتها معه:" وأنا أراه يبتعد عنّي أجدني أتعس إنسانة في الوجود، حتّى مسألة النّدم في كوني اقترنت بإنسان لا ينتمي إلى بيئتي وعالمي باتت بعيدة".[٦]

وإحساسُها بالغربةِ يتضاعفُ لدى تفكيرها في ما تعانيه، " صديقاتي يعشن حياةً طبيعيّةً مع أزواجهنّ الّذين ينتمون إلى البيئةِ ذاتِها، أنا الآن أعيش غربة مضاعفة، غربتي عن أهلي ووطني، وغربة روحي ونفسي، عدنان يتفنّن في تعذيبي...".[٧]

الخلاصة

تأسيسًا على ما سبقَ، ومن خلال تتبّع مسارات الشّخصيّات في ابنة الشّرق، يتبيّنُ أنّ الهويّة الثّقافيّة ليست بنيةً مغلقةً، بل مسار متحوّل، يتأرجحُ بين الأصالة والانفتاح، وبين التّقاليد الصّارمة ورغبات الأفراد، فزواج عايدة وعبد الباقي، قدّم نموذجًا للتّداخلِ الممكن داخل الشّرق، بينما زواج عدنان من كرستين أوجد صراعًا حادًّا بين الشّرق والغرب. أمّا محمّد، فيتجسّد فيه تراكم هذا الإرث، إذ يحاول التّوفيق بين جذوره المتعدّدة والهجينة، غير أنّ علاقته برؤى، تكشف أنّ الهويّة ليست مجرّد اختيار شخصيّ، بل شبكة معقّدة من الانتماءات المذهبيّة والاجتماعيّة، الّتي قد تقيّد حركة الفرد، ومن ثمّ، ترسم الرّواية صورةً بانوراميّةً لتحوّلاتِ الهويّةِ عبر الأجيال، وتُبرزُ أنّ البحثَ عن الانتماءِ يظلُّ معركةً متجدّدةً في المجتمعات الشّرقيّة المعاصرة.

٦. أزمة الهويّة والانتماء

تضعُ روايةُ ابنة الشّرق للشّاعرة والرّوائيّة زهراء الغانم شخوصَها في مواجهةٍ مباشرةٍ مع أزمة الهويّة، وهي أزمة ناتجةٌ عن التّحوّلاتِ الثّقافيّةِ والاجتماعيّة، الّتي عرفتها المجتمعات العربيّة، في ظلِّ التّداخلِ مع الغربِ من جهةٍ، والانقسامات المذهبيّة والعشائريّة من جهةٍ أخرى.

هذه الأزمةُ لا تظهر بوصفِها مجرّد إشكال فكريّ، بل "تتجلّى في تفاصيل الحياة اليوميّة للشّخصيّاتِ، في مشاعر الغربةِ والاغترابِ، وفي البحثِ الدّائم عن الانتماء المفقود".[٨]

(١) م،ن، ص ٢٥.

(٢) م،ن، ص ٢٥.

(٣) م، ن، ص ٤٢.

(٤) ابنة الشّرق ص ٤٢.

(٥) م،ن، ص ٥٠.

(٦) م،ن، ص ٥٠.

(٧) م،ن، ص ٥١.

(٨) هول، ستيوارت، الهويّة الثّقافيّة والشّتات، ضمن كتاب: الثّقافة والهويّة، تحرير بول دو غاي، ترجمة محمّد بدوي، المجلس الأعلى للثّقافة، القاهرة ٢٠٠٢م، ص ٣٤.

٦-١. الأزمات النّاجمة عن التّحوّلات الثّقافيّة والاجتماعيّة

١ ـ تعدّد الانتماءات الثّقافيّة:

تتوارثُ الشّخصيّاتُ عبر الأجيال أصولًا متعدّدةً (لبنانيّة، سعوديّة، غربيّة، عراقيّة)، ما يجعلها عاجزةً عن التّماهي مع هويّةٍ واحدةٍ واضحةٍ، فعدنان مثلًا، يتأرجح بين انتمائه الشّرقيِّ وزواجه من كرستين الأمريكيّة، فبعد أن كان معجبًا بكلّ ما فيها من صفاتٍ، حتّى أحبّها وتزوّجها، " لم يعد متأكّدًا من هذا الأمر، لكنّه واثقٌ من أنّه أحبّ هذا الاختلاف، وهذا البون الشّاسع في التّفكير بين الشّرق والغرب"،[١] وفي غمرةِ صحوة ضميره، يصارح حسناء حبيبته المغربيّة بهواجسه" ما ذنب كرستين من أجل أن أتعامل معها بكلّ هذه اللّامبالاة؟ لقد وثقت بي، وتركت أهلها ووطنها، وأدارت ظهرها لكلّ شيء..."[٢] لكنه يصل بعد ذلك إلى درجةٍ من التّشتّت والتّزعزع أدّى إلى أن يورّثَ هذا الاضطراب لابنه محمّد، الّذي يجد نفسه في مواجهة أزمة هويّة مركّبة، فتارةً تسحره حسناء بأسلوبها النّاعس الجذّاب، " وهي تنظر إليه من تحت رموشها الكثيفة" [٣]،وطورًا يراقبها خلسةً متأثّرًا بأسلوبها في الكلام، "شرد محمّد وهو ينظر إليها...لم يعد يرى غير الفراشات تتطاير من فمها..."[٤]، وهذا الأمر إن دلّ على شيءٍ، فهو يدلُّ على على تعطّشِهِ للحبِّ والعاطفةِ الجيّاشة، فيشعر بهما تجاه امرأة أبيه، ممّا يدخله في دوّامة الإحساس بالذّنب والخطيئة، فيحاول جاهدًا طردَ الأفكار الشّيطانيّة الّتي دفعتها إلى رأسه بمكرها، ويساوره الحرجُ فَـ " أراد أن يغمض عينيه حين نظرت إليه أمّه، كي لا تقع على الّذي يعتمل في داخله، ولا ترى صورة حسناء وهي تتوسّطُ بؤبؤيهما".[٥] ورافقه شعورٌ مزمنٌ بالقلق لم يشأ أن يغادره، إذ بات "يشعر بأنّ هناك حلقة مفقودة في حياته"[٦]حتّى وهو في أحضان جدّته.

٢ ـ الانقسام المذهبيّ:

مع محمّد ورؤى، ينتقل الصّراعُ من مجرّد تباينٍ ثقافيٍّ، إلى اختلافٍ مذهبيٍّ يفرض قيودًا أقوى على خياراتِ الفردِ، فرفض أهل رؤى زواجها من محمّد، يعكس كيف يتحوّلُ المذهبُ إلى عنصرٍ قسريٍّ، "يحدّدُ الهويّة ويضيّقُ هامش الحرّيّة الفرديّة".[٧]

٣ ـ ضغط الأعراف والتّقاليد:

يتمظهر ضغط الأعراف والتّقاليد في قبول كرستين وضعًا غريبًا لم تكن لترضى به في وطنها الأمّ، الّذي يحمي آدميّتها وحقوقها كأنثى، فتخنع لأن تشاركها أخرى زوجها، في مجتمعٍ جاهليٍّ يصرّ على تكريس حياة المرأة لمصلحة الرّجل، فَـ " كيف للأمور أن تتبدّل ويصبح نقيضها هو الصّحيح"؟[٨] ولم تصدّق كرستين الكابوس الّذي تعيشه، أو إمكانيّة تأقلمها مع حياتها الجديدة، إذ "لطالما استغربت من قدرة النّساء الشّرقيّات على تقاسم الرّجل ذاته، لقد كان مجرّد تصوّر هذا الوضع يصيبها بالاختناق، الآن هي من تعيش التّجربة ذاتها..."[٩] وتكشفُ الرّواية كذلك عن سطوةِ المجتمع الأبويّ، الّذي يسعى إلى إعادةِ إنتاج الهويّاتِ التّقليديّةِ، عبر فرض الزّواج من داخل العائلة، هذا الضّغط الاجتماعيّ يُعيدُ الأفرادَ إلى ""الهويّاتِ المفروضةِ" بدل " الهويّاتِ المُختارةِ"، وهو ما يجعل الأزمة أكثرَ حدّةً".[١٠] وتنمو بذور التّمرّد شيئًا فشيئًا في أعماق

(١) الغانم، زهراء، م،س، ص ٥٣.

(٢) الغانم، زهراء، م،س، ص ٥٥.

(٣) ابنة الشّرق، ص ١١٢.

(٤) ابنة الشّرق، ص ١١٢.

(٥) ابنة الشّرق، ص ١١٣.

(٦) ابنة الشّرق، ص ١١٩.

(٧) كوثراني، وجيه، الهويّة والاختلاف: دراسات في المجتمع العربيّ العربيّ الإسلاميّ، المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات، بيروت، ٢٠١٢م، ص ٨١.

(٨) الغانم، زهراء، ابنة الشّرق، م،س، ص ٦٧.

(٩) الغانم، زهراء، ابنة الشّرق، م،س، ص ٦٩.

(١٠) أبو زيد، نصر حامد، دوائر الخوف: قراءة في خطاب المرأة، دار الهلال، القاهرة ٢٠٠٠م، ص ٦٥.

رؤى، معبّرةً عن رفضها فكرة العودة إلى السّعوديّة، على الرّغم من جبروتِ والدها:" لم يعد يهمّني إن هو رضي، أو غضب، يكفيني تنازلات، بقي عليهم أن يحسبوا عليّ الهواء الّذي أتنفّسه، ألا يكفي بأنّني حُرمتُ من أبسط حقوقي"؟[١] ويتنامى التّوتّر لدى سؤال محمّد عن رغبتها بالسّفر إلى السّعوديّة فترة الصّيف، " قالت بصوت مرتفع: وكأنّه لا يعلمُ أيّ جحيم ينتظرني هناك!"[٢] في إشارة منها إلى نيّة أهلها بتزويجها على هواهم، فهي " منذ أن غادرت السّعوديّة إلى أمريكا، تشعر أنّها أخيرًا أصبحت تتنفّسُ الصّعداء، وأنّ بإمكانها تقرير حياتها بنفسها".[٣] ولربّما يتبدّى ضغط العادات في حوار جدّة رؤى مع بناتها، حول تلقّيها العلم في أمريكا:" لقد أصبحت لديّ حفيدة، لم تنشأ في هذه البيئة...لا أعلم إن هي نشأت على عاداتنا وتقاليدنا...".[٤]

وتقاليدنا...".[٤]

وتقول في موضع آخر لدى حوارها مع رؤى، وهي تغدق عليها بالهدايا، وسط دهشة هذه الأخيرة العارمة:" أنا لم أقدّم لأمّكِ أيّ هديّة منذ أن تزوّجت من والدكِ... لم أرتح لكون ابني الوحيد اقترن بامرأة غريبة الدّار والمذهب والوطن..."[٥] ممّا يجسّدُ رفضَ العربيّ المتزمّت كلّ من هو من خارج مجتمعه ولا يتبنّى منظومة قيمه وعاداته وتقاليده.

٦-٢. مشاعر الغربة والفقدان، وتجلّياتها في تصرّفات الشّخصيّات

١ - غربة المكان:

يطالعنا الشّعور بغربة المكان، منذ اللّحظات الأولى للرّواية، مع البطلة الأمّ: عايدة، الّتي هجرت موطنها الأساسيّ لبنان، لتستقرّ في السّعوديّة، بلد زوجها عبد الباقي، باذلةً جهودًا جبّارةً لإلغاء المسافات والاعتياد على محلّ إقامتها الجديد، لكنّ جهودَها ذهبت هباءً منثورًا، فهي لا تنتمي إلى ذلك المكان المتزمّت، بعاداته وتقاليدِهِ، وكلّ من حولها يحصون عليها أنفاسَها، فلا تقوى على التّصرّف بأريحيّة، فَـ " ما تفتأ أن تقارنَ بين حياتها هنا وحياتها في لبنان، أبواها وأهلها، فريال، وبقيّة صديقاتها، هناك بلدها، من الطّبيعيِّ أن تجد انتماءها هناك، فهي لم تشعر يومًا بأنّها معزولة، أو خائفة كما تشعر الآن..."،[٦] وتخشى أن تسرَّ لمطلق إنسان بما يخامرها من مشاعر متضاربة، "لقد أصبحت غير قادرة على الإفصاح عن مشاعرها، وهذا ما يزيدُ شعورها بالعزلة"، [٧] وهذه العزلة انسحبت على كنّتها كرستين، الّتي سُلخت عن عالمها الغربيّ، وأُقحمت في عالمٍ شرقيٍّ يصعب التّعامل معه، أو التّأقلم، يزيد من غربتِها ابتعاد زوجها عنها عاطفيًّا وجسديًّا، فيضحي في عالمٍ آخر ينسجه على هواه، في أحضان امرأة أخرى استحوذت على قلبه وعقله، فصارت تشعر بوحدة الفراش وبرودته:" منذ متى وأنا دائمة الوحدة؟ منذ متى وعدنان لم يعد ينام إلى جانبي؟"[٨]

أمّا محمّد فيعيشُ اغترابًا مزدوجًا: فهو لا يجد نفسه كليًّا في الشّرق ولا في الغرب، ما يجعله يعيشُ "بين بين"، في مساحة هويّة معلّقة، وهذه الحالة تقرّبه من مفهوم "اللّا - انتماء"، الّذي "وصفه إدوارد سعيد في تحليلاته عن المثقّفِ المنفيّ".[٩] يميلُ إلى الغربِ ببساطتِهِ وانفتاحهِ واعتياده على طفولةٍ درجَ في أرضه، لكنّه يستقرُّ في بلد والده بحكم الضّرورة، فيؤلمه انتماؤه وأمّه إلى مكان باردٍ خالٍ من العاطفةِ، في ظلِّ انزياح مشاعرِ عدنان إلى أخرى غير أمّه، ليتركَ لها الألمَ والدّموعَ والعذاب، وحين يقدّر له أن يعودَ إلى مسقط

---

(١) ابنة الشّرق، م،س، ص ١٦٣.

(٢) ابنة الشّرق، م،س، ص ١٦٣.

(٣) ابنة الشّرق، ص ١٦٥.

(٤) ابنة الشّرق، ص ٢١٢.

(٥) ابنة الشّرق، ص ٢١٥.

(٦) ابنة الشّرق، ص١٩.

(٧) م،ن، ص ١٩.

(٨) م،ن، ص ٥١.

(٩) سعيد، إدوارد، المثقّف والسّلطة، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٦م، ص ١٩.

رأسه أمريكا، " حاول أن يجمع بين ماضيه وحاضره، ويأخذ من كليهما ما يجعله ينتمي إلى أحدهما، أو كليهما، لكنّه وجد نفسه تائهًا بين الاثنين، فلا هو استطاع أن يلتقط من عروبته اعتزازًا، ولا من جانبه الغربيّ انتماءً". (١)

إلّا أنّه استمتع بسحر الشّرق مرّتين: في الأولى حين ساوره ميل إلى حسناء، ممّا جعل الذّنب يواكبه، و"في المرحلة الثّانية، توثّق حبّه للشّرق حين تعرّف إلى رؤى...". (٢)

٢ ـ غربة الذّات:

لا تقتصر الأزمة على المكان، بل تمتدُّ إلى داخل الذّاتِ، إذ بدأ الشّعور بالغربةِ يعتمل في أعماق عايدة، بعد انتقالها إلى عالمها الجديد، برفقة زوجها، وتتكرّر المعاناة مع كنّتها كرستين، المنسلخة عن بيئتها الغربيّة، لتكتشفَ غربتها الحقيقيّة وقد تخطّت حدود المكان، إلى غربة الذّاتِ في مكانٍ غادرته العواطفُ الجيّاشة لتنصبَّ في حياةٍ أخرى، هي ضرّتها، وهذا أقسى ما قد تتعرّض له امرأة من معاناة. والغريب أنّها "تدريجيًّا، استطاعت أن تعيش دور الزّوجة الثّاني، بل والمهملة، والأصحّ المهجورة..."(٣) ويشعر محمّد بالانقسام الدّاخليّ نتيجة التّعدّد الّذي يحمله في دمه، وفي هويّته، وهذا الانقسام يخلق لديه فقدانًا للثّباتِ، ويجعله يتصرّفُ بارتباكٍ في خياراته العاطفيّة والاجتماعيّة، فهو يخشى مدرسته الجديدة، ويستغرب اللّغة العربيّة الّتي لم يعتدها يومًا في طفولتِهِ، أمّا وقد شبَّ ونما عوده، فتطالعه الحقيقة المرّة من انصراف والده عن الاهتمام بأمّه، فيضحي غريبًا في بيئتِهِ الأصيلة.

٣ ـ غربة العاطفة:

العاطفة هجرت بيت كرستين بمجرّد انتقالها إلى موطن زوجها، فأضحت بين نارين: نار الرّغبة في الحفاظ على ما تبقّى من كرامتها والانسحاب من حياة زوج خائن، ونار الاستمرار في علاقةٍ باردةٍ خاويةٍ من تأجّج العاطفة، وكلاهما مرٌّ.

أمّا علاقة محمّد برؤى فتحمل بذور الفقدان منذ البداية، إذ يظلّان محاصرين بسلطةِ المذهبِ وضغطِ الأهل، "هذا الفقدان يتجلّى في التّوتّر المستمرّ، بين رغبتهما في الحبّ، ورفض المجتمع، فينعكس على تصرّفات محمّد، الّذي يتشبّثُ بعلاقته بها كملاذٍ أخيرٍ لإثباتِ انتمائه، وعلى تصرّفاتِ رؤى الّتي تعيشُ صراع الولاءِ بين الذّاتِ والأسرة". (٤)

الخلاصة

تبرزُ ابنة الشّرق أزمة الهويّة والانتماء بوصفها نتاجًا مباشرًا للتّحوّلاتِ الاجتماعيّة والثّقافيّة الّتي مرّت بها المنطقة، فالأزمات الّتي تعيشها الشّخصيّات ليست فرديّةً، بقدر ما هي انعكاس لصراع أجيال، بين الانفتاح والتّمسّك بالتّقاليد، وبين التّنوّع المذهبيّ والرّغبة في العيش المشترك، كما تكشف الرّواية أنّ مشاعرَ الغربة والفقدان لا تتوقف عند حدود المكان، بل تمتدّ إلى الذّات والعاطفة، لتصير الهويّة نفسها في حالة فقدٍ دائمٍ، وبذلك تؤكّد الرّواية أنّ البحث عن الانتماء ليس مجرّد خيار حرّ، بل هو معركة وجوديّة تعكس صراع المجتمعات العربيّة مع الحداثة، ومع إرثها التّقليديّ في آنٍ واحدٍ.

الخاتمة

إنّ رواية "ابنة الشّرق"، للكاتبة "زهراء الغانم"، قدّمت نصًّا إبداعيًّا عميقًا، استطاعَ أن يواكبَ تحوّلاتِ الواقع الاجتماعيّ والثّقافيّ، ويجسّدُ أزمة الهويّة والانتماء الّتي يعيشُها الفردُ العربيّ في ظلِّ التّحوّلاتِ الكبرى، فالشّخصيّات لم تكن مجرّد كائنات ورقيّة، بل مرآة لواقعٍ اجتماعيٍّ مضطربٍ يتأرجحُ بين الأصالةِ والحداثةِ، وبين الانتماءِ الجذريّ إلى الأرض والبحث عن آفاق جديدة خارج حدود المكان. ومن خلال ذلك، برزت الرّواية كوثيقةٍ أدبيّةٍ قادرةٍ على تفكيكِ البُنى الثّقافيّة المهيمنة، وإعادة مساءلة علاقة الإنسان بماضيه وحاضره.

(١) ابنة الشّرق، ص ١٢٨.

(٢) ابنة الشّرق، ص ١٨٥.

(٣) ابنة الشّرق، ص ٧١.

(٤) إبراهيم، عبدالله، التّخيّل السّرديّ،م.س. ص ١٤٤.

لقد أظهرتِ الدّراسةُ أنّ الهويّة في الرّوايةِ ليست ثابتةً، أو منغلقةً، بل هي هويّة ديناميّة تتشكّلُ في سياقٍ جدليٍّ، حيثُ يتعرّضُ الأفرادُ لصراعاتٍ داخليّةٍ وخارجيّة، ناجمةٍ عن ضغوطٍ اجتماعيّةٍ وثقافيّةٍ، كما أنّ الإحساسَ بالغربةِ والاقتلاع من الجذور تجلّى في سلوكيّاتِ الشّخصيّاتِ ومواقفها، ممّا جعلَ النّصَّ أشبه بصرخةٍ وجوديّةٍ في وجهِ التّهميشِ والضّياع.

ويمكنُ القولُ إنّ المكان أدّى دورًا محوريًّا في صياغةِ وعيِ الشّخصيّاتِ، إذ لم يكن مجرّد خلفيّة للأحداث، بل فضاءً دلاليًّا عميقًا يعكسُ التّوتّر بين الدّاخلِ والخارج، بين القريةِ والمدينةِ، وبين الوطن والاغتراب، ومن خلال هذا التّوظيف، أكّدت الكاتبة أنّ الانتماءَ ليس مجرّد ارتباط جغرافيّ، بل هو بناء رمزيّ ومعنويّ، يتطلّبُ وعيًا وإرادةً وقدرةً على المصالحةِ مع الذّاتِ.

أما من النّاحية الفنّيّة، فقد اعتمدت الرّواية على أسلوب سرديّ مشحون بالتّوتّرات النّفسيّة والانفعاليّة، وبلغة تمزج بين البساطة والرمزيّة، ممّا أتاح للقارئ أن ينخرط في التّجربة الشّعوريّة للشّخصيّات، وأن يعيش معها قلقها وأسئلتها الكبرى .وهذا ما يجعل" ابنة الشّرق "نصًّا مفتوحًا على تأويلات متعدّدة، حيث تتقاطع فيه قضايا الأدب مع أسئلة الفكر والوجود.

ومن ثمّ، فإنّ القيمة الأساسيّة لهذا العمل تكمن في قدرته على فتح نقاش واسع حول إشكاليّة الهويّة والانتماء في المجتمعات العربيّة، خصوصًا في ظلّ التّحدّيات الرّاهنة المرتبطة بالعولمة، والهجرة، والصّراعات الاجتماعيّة والسّياسيّة .ومن خلال هذا المنظور، تتجاوز الرّواية بُعدها الفنّيّ لتصبح مساهمة في النّقاش الفكريّ والثّقافيّ حول مصير الإنسان العربيّ وهويّته.

المصادر والمراجع

الغانم، زهراء (٢٠١٨). ابنة الشّرق، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، السّعوديّة، الرّياض.

مجمع اللّغة العربيّة (٢٠١٦). المعجم الوسيط، القاهرة، دار الدّعوة،، ج٢.

إبراهيم، عبدالله (٢٠٠٥). التّخيّل السّرديّ: الهويّة والهويّة المضادّة في الرّواية العربيّة، المركز الثّقافيّ العربيّ، الدّار البيضاء.

أبو زيد، نصر حامد (٢٠٠٠). دوائر الخوف: قراءة في خطاب المرأة، دار الهلال، القاهرة.

ـ بابا، هومي (٢٠٠٦). مواقع الثّقافة، ترجمة ثائر ديب، وزارة الثّقافة السّوريّة، دمشق.

ـ ريكور، بول (٢٠٠٥). الذات عينها كآخر، ترجمة جورج زيناتي، المنظّمة العربيّة للتّرجمة، بيروت.

ـ السّيّد، رضوان (١٩٩٧). الجماعة والسّلطة والأمّة، بيروت، دار النّهار.

ـ سعيد، إدوارد (١٩٩٧). الثّقافة والإمبرياليّة، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت.

ـ سعيد، إدوارد (١٩٩٦). المثقّف والسّلطة، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت.

ـ سعيد، إدوارد (٢٠٠٠). خارج المكان، ترجمة فواز طرابلسي، بيروت :دار النهار.

ـ الشّباسيّ، محمّد (٢٠٠٨). الهويّة الثّقافيّة ومتطلّبات تنميتها لدى طلّاب الجامعة في ضوء العولمة. أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلّيّة التّربية، جامعة عين شمس.

ـ علي، سعيد إسماعيل (١٩٩٦). الهويّة والثّقافة: دراسات في الفكر التّربويّ، القاهرة، دار الفكر العربيّ.

ـ كمال، هالة (٢٠١٠). الهويّة الجندريّة في السّرد العربيّ المعاصر، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة.

ـ كوثراني، وجيه (٢٠١٢). الهويّة والاختلاف: دراسات في المجتمع العربيّ الإسلاميّ، المركز العربيّ للأبحاث ودراسة السّياسات، بيروت.

ـ هول، ستيوارت (٢٠٠٢). الهويّة الثّقافيّة والشّتات، ضمن كتاب: الثّقافة والهويّة، تحرير بول دو غاي، ترجمة محمّد بدوي، المجلس الأعلى للثّقافة، القاهرة.

ـ هول، ستيوار (١٩٩٦). الهوية :المعنى والتجربة، ضمنQuestions of Cultural Identity :، تحرير : Stuart Hall & Paul du Gay، لندنSage :.

ــ القاضي، ماجدة أحمد (٢٠١٥). ماهيّة الانتماء ومحدّداته في المجتمع المصريّ، مجلّة العلوم الاجتماعيّة المعاصرة، المجلّد ٧، العدد ٢، جامعة عين شمس.

ـ مصطفى، فاطمة الزّهراء سالم (٢٠٠٧). مفهوم الهويّة الثّقافيّة وتداعياته في الفكر التّربويّ المصريّ المعاصر، أطروحة دكتوراه، جامعة عين شمس.

ـ موقع موضوع، "معنى الانتماء"، تاريخ الدّخول: ٢٣ أيلول ٢٠٢٥. mawdou3. Com .

ـ الوكيل، نازي (٢٠١٢). الهويّة الثّقافيّة في ظلّ تحدّيات العولمة، مجلّة العلوم التّربويّة والنّفسيّة، جامعة القاهرة، العدد ١٤، ٢٠١٢م.

1. Abu Zaid, Nasr Hamid (2000). Circles of Fear: A Reading of Women's Discourse. Cairo: Dar al-Hilal.
2. Academy of the Arabic Language (2016). Al-Muʿjam al-Wasīṭ (The Intermediate Dictionary). Cairo: Dar al-Da'wa, Part.
3. Al-Ghanem, Zahra (2018). Ibn al-Sharq. Riyadh: Arab House for Science Publishers.
4. Al-Qadi, Majida Ahmed (2015). The Nature of Belonging and Its Determinants in Egyptian Society. Journal of Contemporary Social Sciences, Vol. 7, No. 2, Ain Shams University.
5. Al-Sayyid, Ridwan (1997). Community, Authority, and the Nation. Beirut: Dar al-Nahar.
6. Al-Shayasi, Muhammad (2008). Cultural Identity and the Requirements of Its Development among University Students in Light of Globalization. Unpublished PhD Dissertation, Faculty of Education, Ain Shams University.
7. Al-Wakil, Nazy (2012). Cultural Identity in Light of the Challenges of Globalization. Journal of Educational and Psychological Sciences, Cairo University, Issue 14.
8. Ali, Saeed Ismail (1996). Identity and Culture: Studies in Educational Thought. Cairo: Dar al-Fikr al-Arabi.
9. Bhabha, Homi (2006). The Location of Culture, translated by Thair Dib. Damascus: Syrian Ministry of Culture.
10. Hall, Stuart (1996). Identity: Meaning and Experience, in Questions of Cultural Identity, edited by Stuart Hall & Paul du Gay. London: Sage.
11. Hall, Stuart (2002). Cultural Identity and Diaspora, in Culture, Globalization and the World-System, edited by Paul du Gay, translated by Mohamed Badawi. Cairo: Supreme Council of Culture.
12. Ibrahim, Abdullah (2005). Narrative Imagination: Identity and Counter-Identity in the Arabic Novel. Casablanca: Arab Cultural Center.

13. Kamal, Hala (2010). Gender Identity in Contemporary Arabic Narrative. Cairo: The Egyptian General Book Authority.

14. Koutrani, Wajih (2012). Identity and Difference: Studies in Arab-Islamic Society. Beirut: Arab Center for Research and Policy Studies.

15. Mostafa, Fatima Al-Zahraa Salem (2007). The Concept of Cultural Identity and Its Pedagogical Implications in Contemporary Egyptian Educational Thought. PhD Dissertation, Ain Shams University.

16. Said, Edward (1996). The Intellectual and Power, translated by Kamal Abu Deeb. Beirut: Dar al-Adab.

17. Said, Edward (1997). Culture and Imperialism, translated by Kamal Abu Deeb. Beirut: Dar al-Adab.

18. Said, Edward (2000). Out of Place, translated by Fawaz Traboulsi. Beirut: Dar al-Nahar.

19. Website Topic: "Meaning of Belonging." Mawdoo3.com, accessed September 23, 2025.